المواطنة والشعور بالانتماء في الشعر العربي

لماذا اتهمت الأمة العربية بالتخلف؟ ولماذا ساد تاريخ العرب الطويل نزعات غريبة مثل الشعوبية والزندقة والتعصب.. وكانت ذريعة للمستشرقين يتسللون من خلالها إلى قلب الأمة العربية يلوثون دماءها.. ويحاولون قتل نبضاتها بأوهام كثيرة.. يتصيدون فيها كل ما يؤكد جهالة العربي وضعفه وبعده عن صنع الحضارة الباقية..؟

أحمد سويلم - مصر

(١)

لقد توهم أعداء العرب بأننا أمة بعثنا بالدين ولم نبعث بالدنيا.. وأننا لا تستقيم حياتنا إلا بحكام طغاة عتاة فاسدين.. وأننا لا نحسن الحكم.. ولا نحسن فنون الحضارة.. ولا نفقه العلم والتطور.. وأن البداوة هي معيشتنا وسلوكنا وأسباب حياتنا.. وتناسى هؤلاء أن العرب سطروا تاريخهم بأفكارهم وسواعدهم وتأملاتهم.. وسبقوا العالم علماً وفناً وانتماء وقيما وذوقا.. وأن العالم قد ارتضى ما قدمه له العرب وقدروه لما فيه من رؤى تفيد البشرية في حاضرها ومستقبلها.

وربما مرت على الأمة العربية أحقاب طويلة من التخلف نتيجة أطماع حكامها الشخصية وخلافاتهم ومنازعاتهم.. حتى انصرف أبناء الأمة عن الاستمرار في تأكيد الذات العربية.. ونحن اليوم أمام هذا المأزق الحضاري.. تتكالب علينا دول الغرب في محاولة لمحو الشخصية العربية الأصيلة تحت دعاوى العولمة.. والحداثة.. وغيرهما.. لنجد أنفسنا اليوم وقد جذبتنا هذه القشور العصرية التي تغزونا من حضارة الغرب.. فنحاكيها ونضفي عليها كل ما نملك من أوهام العظمة غافلين تماماً عما في حضارتنا وسماتها ومكوناتها.. مما يغنينا عن هذه القشور الغازية.

وسوف نحاول تأكيد بعض هذه الملامح لعلها تفيد في إعادة الثقة في ذواتنا.. وخلق هاجس جديد داخلنا.. ندرك فيه أهمية أن نتسلح بما في الشخصية العربية من مقومات المواجهة والمقاومة.

ولا يفهم من ذلك أنني أدعو إلى العودة أو الارتداد المتباكي على تراثنا الأصيل.. وعدم الأخذ بمفردات الحضارة العصرية.. لكنها محاولة لإعادة القراءة.. فربما تعيد هذه المحاولة تنمية ذاتنا بحيث تصبح في قوة وصلابة في مواجهة الغزو الذي يسلبها.. ويقطعها من جذورها..

وسوف يكون تراثنا الأدبي هو المدينة ذات الأبواب والنوافذ التي نتجول فيها عبر رحلة طويلة.. نلتقط خلالها كل ما يؤكد هذه النظرية الإيجابية.

(٢)

كان لابن الرومي دار.. فاضطره أحد اللؤماء إلى بيعها.. فقال:

ولي وطنٌ آليت ألا أبيعَه
و لا أرى غيري له الدهرَ مالكاَ
وقد ضامني فيه لئيم وعزَّني
وها أنا منه مُعصمٌ بحبالكاَ
وتملك داراً فغصبته إياها

ابن الرومي

(امرأة) جهاراً.. فقال:

وتهضمُني أنثى.. وتغصبُ جهرةً
عَقاري وفي هاتيك أعجب مُعجبِ

ويذكر الجاحظ في رسالته (الحنين إلى الأوطان) قول ابن عباس: لو قنع الناسُ بأرزاقهم قناعتهم بأوطانهم ما اشتكى عَبْدٌ الرِّزْق..!

ما الحكاية إذن..؟

وما قصة انتماء الإنسان لوطنه.. وكيف نظر العرب إلى قضية المواطنة..؟

نلاحظ أن لفظة (وطن) يتطور مفهومها أو مدلولها على مدار الزمن.. فقد بدأ الوطن لدى البدوي ليدل على (مربض الإبل والغنم) ثم شمل منزل الإنسان وبيته.. ونلاحظ أن اللغويين لم يشترطوا في الوطن أن يكون مسقط رأس الإنسان. ربما لأن الإنسان العربي الذي يولد في الصحراء في شبه الجزيرة العربية لم يكن له مكان معين.. فقد أملت عليه الحياة كثيرا من التنقل من أجل تحقيق السلامة والرزق.

أما الوطن بعد الإسلام فقد اتسع مدلوله بصورة أكثر.. فأصبح هو كل مكان يعيش فيه الإنسان فترة زمنية معينة.. ومنه جاء مصطلح (مواطن مكة) وجاء لفظ: وطِنَ بالمكان.. أي أقام فيه.. وتدلنا المعاجم أيضا أن كل مُقام أقام به الإنسان لأمر ما.. فهو موطن له.. ولقد أسهم الأدب النبوي في تأكيد هذا المفهوم حينما نهى الرسول ﷺ عن إيطان المساجد.. وعن جعلها وطنا يمكث فيه المسلم وقتا أكثر مما ينبغي.

ومن الإضافات العصرية في هذا المجال ظهور لفظ الوطنية والمواطن.. وربما نشأ ذلك بعد جهود مضنية من أجل استقرار وإقامة الدول.. وسيادة الروح الوطنية..

ولشدة انتماء الإنسان لوطنه أصداء كثيرة في تراثنا الأدبي فهذا عنترة يقول:

أحرقتني نار الجوى والبعادِ

بعد فقد الأوطانِ والأولادِ

وهذا جميل بن مَعْمَر يؤكد:

أنا جميل والحجازُ وطني

فيه هوى نفسي وفيه شجني

ويروي الجاحظ أن الملك سابور الساساني لما أسر ببلاد الروم.. قالت له بنت الملك وكان قد مرض وعشقته: ما تشتهي..؟

قال: شربة ماء من دجلة.. وشمة من تراب إصطخر.. فحملا إليه فبرأ!

وقديما قال حكماء الهند: حرمة بلدك عليك مثل حرمة أبويك.. لأن غذاءك منها.. وغذاءها منك.

ويحدثنا الأصمعي أحاديث طويلة عن ولع العربي بأرضه فيقول: دخلت البادية فنزلت على بعض الأعراب.. فقلت: أفدني.. فقال: إذا شئت أن تعرف وفاء الرجل وحسن عهده.. وكرم أخلاقه.. وطهارة مولده.. فانظر إلى حنينه إلى أوطانه.. وتشوقه إلى إخوانه..

ونختتم هذه الطائفة من الأقوال بصورة حب الوطن والتمسك به حين يصورها القرآن الكريم.. ويجعل الخروج من الدار مثل قتل النفس.. يقول تعالى:

﴿ ولوْ أنَا كتبْنا عليْهمْ أن اقْتُلُوا أنفُسكُمْ أو اخْرُجُوا من ديَاركُم مَا فعلُوهُ إلاَّ قليلٌ مّنْهُمْ ... ﴾ (النساء).

هكذا يتأكد ارتباط الإنسان بوطنه.. ليصبح إحدى الظواهر الإنسانية التي يشترك فيها الإنسان أنى كان.. ومتى عاش.. وربما كان هذا التمسك هو سر الصراع الدائر بين الإنسان وأخيه الإنسان.. وتفسيراً لهذه الأطماع الجائرة التي نشهدها هنا وهناك من تسلط الأقوى على الأضعف.. ومن تجبر السلطة على الإنسان الأعزل.. وما أظن مسرح المعارك العربية إلا صورة مشرفة للتمسك بالوطن.

وإذا كانت اللغة العربية هي أداة التعبير في تراثنا الأدبي.. فهي تتميز بالثراء.. ثراء طبيعة الأرض..إنها مثلا تعبر عن الألوان تعبيراً غنيا.. فللخضرة والسواد نحو أربعين لفظا.. كما عبرت اللغة عن عناصر البيئة من حيوان ونبات.. ومن ثم ارتبطت اللغة بالأرض والبيئة والإنسان ارتباطا وثيقا.

وقديما التفت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أثر البيئة الطبيعية في الإنسان فكتب إلى أحد حكماء عصره.. وقد منّ الله على المسلمين بفتح الشام والعراق.. قال:

(إنا أناس عرب.. وقد فتح الله علينا البلاد.. ونريد أن نتبوأ هذه الأرض.. ونسكن البلاد والأمصار.. فصف لي المدن وأهويتها ومساكنها.. وما تؤثره التُرَبُ والأهوية في سكانها).

فكتب إليه ذلك الحكيم: اعلم يا أمير المؤمنين أن الله تعالى قسّم الأرض أقساماً: شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً.. فما تناهى في التشريق فهو مكروه لاحتراقه وناريته..وحدته وحراقه لمن دخل فيه.. وما تناهى مغرباً أضر سكانه.. وما تناهى في الشمال أضر ببرده.. وما تناهى في الجنوب أحرق بناره ما اتصل بالحيوان.. وأما الجبال فتخشّن الأجسام وتبلد الأفهام).

ثم ينهي مسألته قائلا: (كل بلد اعتدل هواؤه.. وخف ماؤه.. ولطف غذاؤه.. ناسب أهله هذا الاعتدال).

وقد كان العرب إذا غزوا وسافروا.. يحملون معهم من تربة الأرض رملاً وتراباً يستنشقونه عند نزلة أو زكام أو صداع..وأنشد بعضهم قولهم:

نسيرُ على علم بكُنه مسيرنا

بعفَة زاد في بطون المزاودِ

ولابد في أسفارنا من قبيصة

من التُرب نُسقاها لحب الموالدِ

(٣)

أما الأسباب العامة فتتعلق بحب الجماعة.. وحب الطبيعة.. والعادات والتقاليد وغيرها من مفردات الحياة المختلفة..

لكن الأسباب الخاصة بحب الوطن تتعلق بالذكريات.. والعواطف الإنسانية التي لا يمكن أن يفلت منها أي إنسان..

يقول امرؤ القيس:

عُوجاً على الطلل المُحيل لعلنا
نبكي الديار كما بكى ابن خِذام

تـرى مـن بشـر بـن خـذام هـذا ولماذا بكى..؟

لقد كان عاشقا رحل أحباؤه فبانوا.. وتغيرت ديارهم.. فخيل إليه أن من أحبّهم قد سلوْا عنه وبعدوا إلى غير لقيا.. فحاول أن يجد العزاء حيث يقول:

تغيرت المنـازلُ بالكثيب
وعفّى آيها نسجُ الجنوب
منازلُ من سليمي مقفراتٌ
عفاها كلُ هطّالٍ سكُوبِ
وقفتُ بها أسائلها ودمعي
على الخدّين في مثل الغروبِ
نأت سلمى وغيّرها التنائي
وقد يسلو المحبُ عن الحبيبِ

أمـا عنترة فله أيضـا تجربة شـديـدة الـغـربـة والـبـعـد.. لقد أحالت لوعته وفراقه عن وطنه. لونَ شعره إلى اللون الأبيض.. بعد أن كان حالك السواد.. فكأن فقد الوطن لدى عنترة سبب مهم من أسباب الألم العنيف.. الذي يملك حتى على الفرسان الأقوياء زمام مشاعرهم فيحسون الحرقة والأسقام..

لـقـد عـاد عـنـتـرة مـن رحلته الطويلة ليرى كل شيء قد تغير في حبّه.. فيتذكر عبلة ويقول:

بين العقيق وبين بُـرقة ثَهمدِ
طلَلٌ لعبلةَ مُستهلَّ المعهدِ
يا مسرح الآرام في وادي الحمى
هل فيك ذو شجنٍ يروح ويغتدي

ومرة أخرى يتذكر حبه ويحيي الديار:

حييتَ من طللٍ تقادم عهدُه
أقوى وأقفرَ بعد أم الهيثم

وهـذا حـاتم الطائي يحن إلى جبـال طـيء حتى ليخيل إليه أن ناقته أيضا تحنّ مثله فيقول:

حننتُ إلى الأجبالِ أجبالِ طيء
وحنّتْ قَلُوصي أن رأت سوطاً أحمراً
فقلت لها: إن الطريق أمامنا
وإنا لمحيو ربعنا أن تُيسّرا

عنترة بن شداد

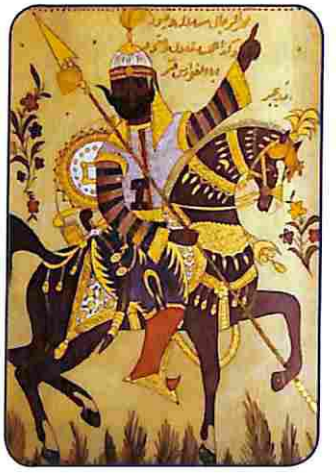

فيا راكبي عُليا جديلة إنما
تُسامان ضيماً مُستبيناً فتنظرا

وهـنـاك أمثلة كثيرة لعدد من الشعراء الذين غابوا عن أوطانهم وتملكهم الحنـين ولوعـة الـفـراق تمتلئ بها كتب الأدب.

لـكـن يـجـدر بـنـا أن نـتـوقـف أمـام الـشـعـراء الـصـعـاليـك في شخص زعيمهم عروة بن الـورد.. هـؤلاء الـذين كـانـوا يـحـيـون حياة الغزو والإغـارة بعيدا عن ديارهم وقبائلهم.. وهـاهـو يعبر عـن ذلك كله في قوله:

دعيني أطوّف في البلاد لعلني
أفيدُ غنى فيه لذي الحق مَحْملُ
أليس عظيماً أن تلمَّ مُلمةٌ
وليس علينا في الحقوقِ مُعوَّلُ
فإن نحن لم نملك دفاعا بحادث
تلمُّ به الأيامُ فالموتُ أجمل

وحينما نفتح صفحة الإسلام.. نجد أنفسنا أمـام شـعـراء الفتوح الإسلامية الذين غربتهم الفتوح.. وعاشوا بيئات جديدة تماما وبعيدة عـن أوطـانـهـم.. فـأخذهـم الحنين وعـبـروا عـن أشواقهم ومواجعهم بأساليب مختلفة.. فبعضهم حن إلـى الجبـال والمـراعـي والمنـاخ.. وبعضهم حن إلى دياره وأحبائه.. وراح فـريق يبكي حظه أن ألقاه القدر في هـذه المناطق النائية.. عـلـى حـين نجـد آخـريـن تجـري عبراتهم في الذكرى.

ونمضي قليلاً مع الزمن لنجد الشعراء العذريين يربطون عشقهم المـجـنـون بـالـوطـن.. لأنـه وطـن معشوقاتهم.. فهذا مجنون ليلى يتذكر أيـام الـصـبـا.. حيث التقى بمحبوبته ليلى في جبل التوباد.. فيقف أمـامـه لعله يشفي أوجـاع قلبه:

وأجهشت للتوباد حين رأيتُه
وهلّل للرحمن حين رآني
وأذريتُ دمع العين حين رأيته
ونادى بأعلى صوته ودعاني
فقلتُ له أين الذين عهدتَهم
حواليك في خصب وطيب زمانِ

فقال: مضوا واستودعوني بلادهم
ومن ذا الذي يبقى مع الحدثانِ
وإني لأبكي اليوم من حذري غداً
فراقَك.. والحيانِ مؤتلفانِ
سجالاً وتهتاناً ووبلاً وديمةً
وسحاً وتسجاماً إلى هَملانِ

وهذا جميل بن معمر يجاهر بأمنية دفينة في قلبه:

ألاليت شعري هل أبيتنّ ليلةً
بوادي القُرى إني إذن لسعيدُ
وهل ألْقَيَنْ فرداً (بثينةَ) مرةً
تجود لنا من ودّها.. ونجودُ
وهل يلتقي الأشتاتُ بعد تفرق
وقد تُدرك الحاجاتُ وهي بعيدُ

ارتبط الوطن إذن بالمحبوبة.. وأصبح وطن المحبوبة هو وطن الشاعر نفسه.

(٤)

لقد كان طوافنا فيما سبق مع شعراء البادية.. الذين يعتمدون على التنقل.. ويفتقدون الاستقرار.. فماذا عن شعر الاستقرار الحضري وعلاقته بالوطن؟

لقد استقر الحكم السياسي.. وتكونت الأمم والإمارات والممالك.. وشعر العربي بأهمية أن ينتمي إلى وطن وأرض وفكر ولغة وعقيدة.. وتسابق الشعراء يعبرون عن هذه المواطنة بعاطفة قوية.

وكم من قصيدة حركت المشاعر في نفوس البشر بما تنطوي عليه من صدق الشعور.. وعمق المواطنة.. والسعي والمناداة بتحقيق الحلم الإنساني.

محمود سامي البارودي

وهذا محمود سامي البارودي في منفاه.. يعبر عن ذلك في قوله:

لم أقترف زلةً تقضي علي بما
أصبحتُ فيه فماذا الويلُ والحرَبُ
فهل دفاعي عن ديني وعن وطني
ذنب أدانُ به ظلماً وأغتربُ
لا يخفضُ البؤسُ نفساً وهي عالية
ولا يُشيدُ بذكر الخامل النشبُ

أما شوقي فقد عاد من منفاه عام ١٩٢٠ منشداً:

ويا وطني لقيتك بعد يأس
كأني قد لقيتُ بكَ الشبابا

ثم تجيء المدرسة الحديثة للشعر.. لنجد الشاعر يطمح إلى أن يكون شريكا في صنع الأحداث.. لقد عاصر الشاعر منذ منتصف القرن الماضي تلك التحولات الجذرية التي مر بها الوطن العربي والإسلامي.. وانقسمت الأقلام في مواجهة السلطة إلى أقلام موالية بمثابة أبواق مرائية.. وأقلام معارضة تحكّم العقل والفكر السياسي وتعبر عن ذلك بصراحة من دون خوف.. وأقلام متزنة تقرظ العمل الإيجابي وتسقط العمل السلبي.

وأحدثت تلك الحال ارتباكا لدى الشعراء.. وخاصة في مواجهة الأحداث الجسام. مثل نكسة ١٩٦٧ أو حرب ١٩٧٣. إذ إن الشعر لا يجوز أن يتناول الحدث في حد ذاته وإنما يتناول أثر هذا الحدث في الإنسان والمجتمع.

صار الوطن للشاعر إما شرنقة خانقة.. أو فوضى ليس لها حدود.. وعلى الشاعر أن يُعبر بأدواته عن إحساسه الصادق بما يشعر به من ضغوط اجتماعية وسياسية .. بل رأينا الشاعر يوحد بين الوطن والسلطة.. بين المدينة والحاكم.. في محاولة لتشخيص الغربة التي يحسها ويعيش داخلها..

وبعد:

فإن فكرة المواطنة في التراث الأدبي قد تعددت ملامحها وقسماتها.. ولكنها لا تخرج عن إطار الحب في أقسى حالات الضجر واللوم..

إن خيال الشاعر في تجسيد الوطن امرأة أو فكرة أو عالماً متسعاً أو ضيقا إنما يؤكد ارتباط الإنسان العربي بهذا الوطن مهما كانت جراحه وآلامه.. ومهما أشعره بالاستكانة والغربة.. لأنه يسري في دمه حتى النخاع ■